# علاقة الطرق الصوفية في الجزائر بالسلطة العثمانية بين المساندة والمعارضة

**د. مصطفى بن واز د. عبد الحفيظ حيمي**

**جامعة طاهري محمد ـ بشار**

mostaphabenouaz@gmail.com

hafidhistoire1463@gmail.com

**تاريخ الإرسال: 2019/05/13؛ تاريخ القبول:2019/06/08**

**الملخص:**

تعددت الزوايا والطرق الصوفية في الجزائر في العهد العثماني وأضحى تأثيرها واضحا خاصة في المجال الجهادي، الاجتماعي والديني، فانعكس ذلك على التأثير في القرار السياسي حيث سعى العثمانيون لكسب ود المشايخ نظرا للدور الذي كانوا يلعبونه في استتبات الأمن وتحقيق الأهداف السياسية، لكن سرعان ما تغيرت المعطيات وأضحت هذه الطرق غير راضية عن العثمانيين لأسباب مختلفة أدت لقيام ثورات عديدة كانت من بين أسباب انهيار الحكم العثماني في الجزائر.

**الكلمات المفتاحية:** العثمانيون؛ الطرق الصوفية؛ التعليم؛ الجهاد؛ الجزائر.

**Abstract:**

There were many Sufi sects and shrines in Algeria in the Ottoman era. Their influence became apparent, mainly in the religious, social and jihadist field (holy war). This was reflected in the influence on the political decisions as the Ottomans sought to win the hearts of the role they played in restoring security and achieving the political objectives. However, the circumstances soon changed and these sects became dissatisfied with the Ottomans due to many reasons which led to many revolts, which brought about the collapse of the Ottoman rule in Algeria.

**Key words :** Ottoman ; Sufi sects; education; jihad; Algeria

**مقدمة:**

لقد كان سقوط الأندلس في نهاية القرن ( 9هـ /15 م ) وعجز الحكام على رد العدوان الصليبي عن الجزائر بداية مرحلة جديدة في تاريخها تتضح معالمه مع بداية القرن (10 هـ /16م) باستجابة العثمانيين لنداء الاستغاثة من قبل الجزائريين الذين أضحوا تحت حمايتهم.

إن العامل الديني ـ كما يبدو ـ كان عامل حسم لتلبية النداء مما دفع القوى الدينية من علماء وزوايا للتحالف مع العثمانيين لصد العدوان ورد الغزاة الاسبان أمام تخاذل الحكام.

لقد عمل العثمانيون على تثبيت أقدامهم بتحالفهم مع شيوخ الزوايا وعلمائها خاصة وأن الطرق الصوفية قد ساهمت بشكل كبير في تاريخ العثمانيين.

"إن الزوايا والطرق الصوفية لم تكن وليدة التواجد العثماني في الجزائر، بل كانت موجودة قبل ذلك، لتعرف انتشارا ملفتا بعد ذلك حيث ظهرت أسماء لامعة من المتصوفة أمثال عبد الرحمن الثعالبي، إبراهيم التازي ،محمد الهواري ومحمد بن يوسف، ومن الأسماء التي عاصرت بداية العهد العثماني أحمد بن يوسف الملياني ومحمد بن شعاعة"[1].

وإذا كانت بداية التصوف محصورة في بدايتها في المدن، لكن بترحال العلماء وتحركاتهم عرفت الأرياف انتشار الظاهرة التي ستنعكس بعد ذلك على مختلف الأصعدة.

لقد عملت هذه الطرق على دعم السلطة العثمانية في ميادين شتى، حيث كانت أساس بناء هام، فشدت من عضد العثمانيين ضد الاسبان في حركة جهادية كانت الرباطات والزوايا متصدرة لها.

رغم تعدد أسمائها ومشاربها إلا أنها التقت في نقطة واحدة في المساهمة في رقي المجتمع في مختلف المجالات في المدن والأرياف، وغرس القيم الروحية بين عناصر المجتمع، فلعبت دورا بارزا في إصلاح ذات البين والحفاظ على النسيج الاجتماعي، بالمقابل، ومع تراجع الخطر الأجنبي والانفتاح المادي والانكفاء على الذات وكذا المشاكل التي وقعت لبعض الطرق، تغيرت البوصلة وأضحت هذه الزوايا سببا لانهيار الدولة.

جدير بالذكر بأن موضوع التصوف في العهد العثماني أخذ جانبا موفورا من الدراسات الوطنية والأجنبية خاصة منها الفرنسية، وتزخر المجلة الإفريقية بمختلف أعدادها بزخم كبير في الحديث عن التصوف بشكل عام وبالتصوف في الجزائر بشكل خاص، وارتباطه بالعثمانيين بشكل أخص، كما أن المدرسة الوطنية بمؤرخيها لم تبخل في الكتابة في هذه المواضيع على شاكلة البوعبدلي، أبو القاسم سعد الله، سعيدوني وآخرين...

فما هي العوامل التي جعلت هذه الطرق أسباب تأسيس وبناء للدولة؟ وما الذي جعلها تنقلب لتصبح معول هدم وانهيار؟ وهل تتحمل وحدها هذه التبعات؟

ولعل الفرضيات التي يحيلنا عليها الموضوع، هو طبيعة الدولة العثمانية من حيث تكوينها الذي كان على أساس طرقي صوفي بزخم روحي، أثر على كينونة الدولة في أصلها، مما جعل العثمانيين يبحثون عن هذا المأوى في الجزائر، لكن هذا العامل الروحي ظل واضحا خاصة في فترة المواجهة مع الاسبان، وما لبث أن بدأ يخفت أوره مع انتشار السلم الدعة مما شجع الطرق الصوفية والسلطة معا على الإقبال على ملاذ الحياة، فظهرت الأنانية وحب السلطة كل ذلك أعطى مآلات سلبية جعلت الإخوة أعداء، لأن سكر المال وسكر السلطان أعمى أبصار الجميع وهو أهون من سكر الخمر كما يرى أبو حامد الغزالي.

وقصد توضيح الصورة سنلجأ للمقارنة تارة وسرد الأحداث والتعقيب عليها حتى يتسنى لنا معرفة الخلفيات، وواقع هذه العلاقة بين الطرفين.

وقد قسمنا مراحل العلاقة بين الطرفين إلى قسمين: مرحلة التحالف، مرحلة التوتر.

- **مراحل العلاقات بين السلطة العثمانية والطرق الصوفية:**

"إن عجز الزيانيين والحفصيين وما ترتب عنه من حالة التقهقر والفوضى التي طالت البلاد في شرقها وغربها، جعل القوة الدينية تميل مع الوجود العثماني ضد الغزاة الاسبان"[2]، فالزوايا والطرق الصوفية في الجزائر في علاقتها مع العثمانيين عرفت في الواقع مرحلتين:

- "مرحلة التحالف الديني والسياسي لمواجهة التهديد المسيحي وتحرير البلد من خلال التوعية بالتعليم خاصة العلوم النقلية بالمدينة والريف على حد سواء، وكذا الاهتمام بالمجتمع من خلال إيواء

المحرومين والفقراء، وكذلك دور المرابطين في إثارة الحماس ضد الغزاة حيث سعت هذه القوى للدفاع عن الجزائر، وهو ما نلمسه من مطالب علماء تلمسان ومرابطيها لأبي عبد الله الزياني[3]. لما اعتلى العرش خلفا لأخيه أبو حمو الزياني في بداية القرن ( 10 هـ / 16 م) بعدم التعامل مع الاسبان، مما اضطره للتحالف مع خير الدين"[4].

- "مرحلة التوتر والمجافاة واندلا ع الثورات، وفيها ظهر الجفاء بين الطرفين خاصة بعد تراجع الخطر الخارجي رغم سعي العثمانيين بكل الطرق لإغداق المال والإعفاء من الضرائب"[5]، لكن ذلك لم يمنع من ظهور إرهاصات الخروج عن العثمانيين وبالتالي بداية الثورات، بل إن الأمر تعداه لظهور انحرافات خطيرة في مسار شيوخ الزوايا تحقيقا —كما يبدو– للرغبات والنزوات.

**أ– مرحلة التحالف**

"لقد احتلت الزوايا في العهد العثماني الصدارة في الثقافة والتعليم وانتشرت عبر ربوع الوطن في بلاد القبائل، العاصمة وتلمسان ومن ذلك زاوية الشيخ محمد التواتي ببجاية قد خرجت أجيالا من المتعلمين"[6] أمثال سعيد قدورة .

"لقد انتشر التصوف في المدن قبل الأرياف، لأن معظم المتصوفين قد ظهروا في المدن الكبيرة مثل بجاية، تلمسان ، وهران، قسنطينة، والجزائر"[7]. لكن — يبدو– أن الأمر لم يستمر، إذ نلاحظ أن هذه الزوايا تحركت نحو الداخل نظرا لظروف سياسية جعلت الريف يستقطبها. يقول سعد الله":... غير أن هذه الظاهرة لم تظل كذلك، فمع ضعف الإدارة المركزية وتعفن الأحوال السياسية وكثرة الظلم والفساد، انتشرت حركة التصوف إلى داخل البلاد وأسس أتباع أولئك المرابطين زوايا لهم في الأرياف، أصبحت هي نفسها ملتقى لنشر العلم وبث الأخلاق الفاضلة وتحريض على الجهاد ضد العدو..."[8]

"لقد كثر عدد المؤسسات الدينية الإسلامية وغير الإسلامية في الجزائر، وانتشرت على نطاق واسع، وفي هذا الصدد يقول "دوفول" "DEVOULX"." في سنة (1245 هـ /1830 م) ضمت الجزائر العاصمة ثلاثة

عشر مسجدا كبيرا و 109 مسجدا صغيرا و 32 ضريحا و 12 زاوية، بالمجموع 176 مبنى مخصصا للشعائر.."[9].

فالملاحظ أن عدد الزوايا كان في اضطراد من حيث تزايدها العددي، فإذا كان عددها 12 في العاصمة، فإن أعدادها كانت مضاعفة في بقية الوطن بغية تحقيق الأهداف المرجوة داخليا والتصدي للخطر خارجيا.

"إن نشاط الزوايا بشكل أكبر في الريف جاء لغياب الكتاتيب والمساجد ونظرا لبساطة عقلية السكان، ضف إلى ذلك تسابق القبائل للاتحاد مع مرابط، فكانت النتيجة كثرتهم[10]، فالزواية أضحت بمثابة المسجد والمدرسة في طلب العلم وتقديم فتاوى للناس في أمر دينهم ودنياهم والتعامل مع النوازل، وفي القرن( 10 هـ / 16 م) تحولت الزوايا إلى معاهد للتعليم حيث سهلت المباني"[11].

"لقد مثلت الزاوية المسجد والمدرسة في آن واحد[12]، وهي بالتالي أضحت تلعب دورا محوريا في التربية والتعليم، فقد أصبحت مقرا للعبادة والدراسة ومعرفة علوم الدين والفقه ومبادئ القراءة والكتابة إضافة لكونها مأوى لعابر السبيل ودمج فئات المجتمع بغض النظر عن انتمائهم العرقي والجهوي"[13].

فقد تمثل دورها المحوري خاصة في مجال التعليم "ويظهر الدور الإيجابي للزوايا الريفية في التعليم على الخصوص. فقد كانت بالإضافة إلى وظيفتها الدينية، معاهد لتعليم الشبان وتنوير العامة... ففي المدن أيضا كانت بعض الزوايا تقوم بدور إيجابي في نشر التعليم بجميع مستوياته". وبالتالي تتجلى مظاهر تعدد المهام التي كانت تقوم بها الزوايا لأجل حفظ المجتمع من الجهل والانحراف.

"فالزاوية القشاشية قد تحولت تدريجيا إلى مدرسة عليا أو معهد، وهذه الزاوية تتبع جامع القشاش . ومن الزوايا التي لعبت دورا رئيسيا في نشر التعليم في غير العاصمة زاوية الفكون في قسنطينة، وزاوية مازونة ذات الشهرة الواسعة، وزاوية عين الحوت بتلمسان ، وزاوية محمد التواتي ببجاية، وغيرها..."[14]. إن شيوخ الزوايا وعلماءها لم يبخلوا بأوقاتهم أو أموالهم من أجل إبقاء هذه المؤسسات شامخة مؤدية لواجبها الديني والوطني حفاظا على كينونة المجتمع وديمومته من أمراض الجهل والتخلف والتي تعد أخطر من أمراض الجسم.

إن معظم زوايا المدن كانت معطلة عن التعليم لوجود كتاتيب من جهة والمساجد والمدارس المتخصصة من جهة أخرى. وبذلك كثرت في المدن الأضرحة والقباب والزوايا التي تؤدي دورا اجتماعيا ،كإيواء الفقراء والعجزة والغرباء وحماية الهاربين إليها من المجرمين والسياسيين المغضوب عليهم، واستقبال التلاميذ الدارسين في المساجد المجاورة.

وهذا دور اجتماعي آخر وهو خطير لأن إيواء هذه الفئة الاجتماعية يعد تكافلا اجتماعيا ووطنيا رغم الانحرافات التي وقعت في التعامل مع هذه الأضرحة نظرا للاعتقادات التي سادت في المجتمع من جهة والانحراف الذي ساد بعض شيوخ الزوايا من جهة أخرى، هذا التحول في الأدوار لبعض الزوايا مرده إلى الأوضاع السياسية التي سادت آنذاك ولغلبة – كما نعتقد– الجانب المادي لبعض الشيوخ الذين آثروا لمصالحهم الشخصية ونزاعاتهم الذاتية ليتأثر العامة من الناس بهذا الواقع المرير.

وإلى جانب دورها التعليمي كان هناك دور أكثر خطورة وهو الجهاد ضد الاسبان الذين أضحوا غزاة مغتصبين للبلد، "كانت الزوايا عبارة عن رباطات أو نقط أمامية ضد الأعداء. فكان المرابطون يقودون أتباعهم في الحروب الجهادية وينصرون المجاهدين ويطعمونهم في زواياهم ويتحالفون مع الأمراء المكافحين من أجل الدين وحماية البلاد، وعلى هذا النحو تحالف بعضهم مع العثمانيين، وقدموا لهم المساعدات الأساسية فجندوا من ورائهم الشعب وجمعوا لهم المؤن والمعدات ورفعوا الروح المعنوية للمحاربين..."[15].

"وقد لعبت الرباطات دورا كبيرا في فتح وهران الأول سنة (1119 هـ/1707 م)، والثاني سنة (1205 هـ/ 1791م)، واشتهر من علماء الرباطات في الفتح الأول مصطفى الرماصي وأبو الحسن العبدلي. كما اشتهر من علماء الرباطات أيام الفتح الثاني محمد بوجلال والطاهر بن حوا ومحمد بن علي الشارف المازوني وولداه، وكذلك محمد المصطفى بن زرفة، وقد أقاموا تحت رئاسة بوجلال عند جبل المائدة قرب وهران " للتضييق على الكفار" وكانوا هناك يدرسون ويحاربون أيضا"[16].

إن التواجد الاسباني على سواحل الجزائر لعب دورا بارزا في تدعيم فكرة التحالف بين العثمانيين والعلماء، خاصة وأن السلطة بالجزائر لم يكن بإمكانها التغلب على تهديدات السفن الأوروبية من دون مساعدة وحماية المرابطين خاصة أواخر العهد العثماني.

"وبما أن الحرب ضد الاسبان كانت مرآة عاكسة للتحالف الجزائري العثماني وإدراك الحكام لمكانة العلماء والصلحاء لدى العامة على أنهم دعاة الجهاد وحماة البلاد، فإذا هم لم يقوموا بالجهاد تعرضوا لسخط العلماء واتهاماتهم، لهذا فإن الباي محمد الكبير كان يضع العلماء في المقدمة عند المواجهة مع الاسبان، فإن انتصروا كسب سكوتهم، وإن هزموا تخلص من نقدهم"[17].

"فتيار الجهاد الذي انطلق من المسجد، والزاوية حيث طلبة العلم وشيوخه، كان له قوته وتأثيره، وهو ما دفع بالحكام إلى ركوب أمواجه، خاصة ومنذ أن حلوا بالجزائر أدركوا أنهم غرباء عن البلاد، وأن العامل الذي يربطهم بالأهالي هو الدين والجهاد ضد الغزو الأجنبي. لذا استغل العثمانيون عامل الروح الجهادية في الأوساط الشعبية، والعداء المشترك للمسيحيين، رغم أنهم يضمون داخلهم أعلاج مسحيين، ومغامرين لا عقيدة لهم، إلا أن الإسلام كان الرابط الوحيد ظاهريا"[18].

"وخير دليل على روح البذل والعطاء ما قام به المرابط سيدي بلاحة وهو الذي قتله الأسبان عام (1098 هـ /1696 م)، وهذا المرابط دعم الجيش العثماني المتكون من 700 جندي بـ 300 جندي في صراعهم ضد الاسبان في وهران،وحتى لما عزم الداي محمد بكداش على فتحها قصده العلماء بكثرة، وقد ذكر عبد الرحمن التلمساني قوله:"جاء الناس إليه من كل فج عميق..." وكان طلبة العلم، وحملة القرآن هم أشد الناس مسارعة لإجابة دعوة السلطان إلى هذا الجهاد المبارك"[19].

والصورة نفسها يصورها بسام العسلي في حديثه عن فتح وهران في بداية القرن (11 هـ / 18 م) فيقول": كان رجال الدين والأئمة يذكون نيران الإيمان في القلوب، ويدفعون بالناس إلى ساحات الشرف. ومقابل ذلك، فما إن علم الصليبيون بنوايا المسلمين، حتى أرسلوا دعما سريعا من مالطا يتكون من سبع سفن تحمل على متنها عددا من أشد المقاتلين وبعض مئات المتطوعين الفرنسيين"[20].

ويؤكد بروسلار "BROSSELARD " هذا الواقع بقوله:" كان الفقراء (الشيوخ) مؤهلين ليكونوا أبطال الإيمان بإمكانهم التحكم بجيش مستعد منضبط للقتال..."[21].

وجدير بالذكر أن دور الطرق الصوفية تعداه لمجالات أخرى، ويبدو أن ذلك يرتبط بتثبيت مركزها الاجتماعي حتى تظهر كقوة ضاغطة على السلطة، ومن هذه المجالات، المجال الاقتصادي حيث "كانت بعض الموانئ تسير من قبل شيوخ الصوفية وأصحاب البحر، فالسفن تبنيها جماعات التجار والملاحين، وكلهم أتباع الطرق الصوفية، ولكل ميناء مشيخة بحره. وتقسم مغانم البحر بين المشيخة والمجاهدين، والتفاوض لفك الأسرى يكون مع مشيخة الرواق والفدية تدخل لصالح الجماعة، وأحيانا ترفض المشيخة فك أسر بعض الأسرى المعروفين بعدائهم للمسلمين"[22].

إن هذا النشاط الذي كانت تقوم به هذه الزوايا يدل دلالة قطعية على الأهداف التي كانت تتوخاها وذلك لتحقيق مكاسب مالية تعود إليها في وقت الحاجة تعضيدا لموقعها الديني وكذا الاجتماعي، ويبدو أن هذا المسعى لم تكن تتبناه كل الطرق، ولكن القلة القليلة أرادت أن يكون لها موطئ قدم لتحقيق مآربها، وهو ما نلحظه في جوانب أخرى كإصلاح ذات البين مثلا، حيث كان "المرابطون بما لهم من مكانة، يتدخلون ويتوسطون بين المتنازعين، فوحدهم كانوا يمثلون شيئا من العلم والحكمة والعدل والرحمة. وعندما تضطرب الأمور في البلاد وينعدم الأمن وتعجز السلطات عن التحكم فيها، كان المرابط هو الملاذ الذي يلتجئ إليه الأهالي لتسيير أمورهم، وله الدور الرئيس في الصلح والسلم و التحكيم خاصة في الأيام المضطربة، فكان الناس يلتجئون للمتصوفة ليحكموا بينهم في النزاعات"[23].

وهناك صورة أخرى في الوساطة التي نجحت فيها الزوايا وهذا بمنطقة القبائل، "حيث لعب آل مقران دورا كبيرا في هذا المجال من خلال حادثة رسو سفينة بين بجاية وجيجل وعلى متنها زوجة القنصل الفرنسي وابنتها ذات 14 سنة وهما في طريقهما إلى السويد، وقد تم اقتياد يد الفتاة إلى الجبال حيث تم تحريرها من أحد المرابطين بعد ما فشلت السلطة العثمانية"[24].

إن هذا التصرف من قبل المرابطين والزوايا يعطي الانطباع بوضوح لفشل السياسيين في الوصول إلى أهدافهم مما يهدد طبيعة التواصل بين النظام والرعية، ونعتقد هذا ما كان يخشاه العثمانيون الذي سعوا بكل ما أوتوا من قوة على إبقاء حبل الصلة بينهم وبين الجزائريين على أحسن ما يرام، لكن تدخل الزوايا في عديد القضايا جعل هذا الحبل يترنح مما أثر سلبا ليس على العلاقة فحسب بل على التواجد العثماني في الجزائر في حد ذاته.

**ب–مرحلة التوتر**

إن التحالف الذي جمع الطرق الصوفية والسلطة العثمانية حقق بعض أهدافه لكل طرف، فمساندة العلماء للسلطة جعلها تستمر في أجواء استقرار بالمقابل وجد العلماء الصوفية ضالتهم في تحقيق مبتغاهم، لكن يبدو أن ذلك كان إلى حين، إذ ما انفكت أن تفككت عرى التواصل بين الطرفين، وبالتالي لم يكن التحالف بغرض خدمة الوطن والدين حسب اعتقادنا، ولكن المصلحة في كثير من الأحيان كانت سيدة الموقف، ذلك أن العدو المشترك قد تم القضاء عليه ودخل الطرفان في امتحان يود كل واحد أن يفرض نفسه على الآخر.

"لقد خرج بعض الطرقيين والمتصوفة عن السلطة العثمانية وأعلنوا تمردهم بحمل السلاح معلنين الثورة ضد نظام الحكم ومن هذه الثورات ثورة درقاوة، أتباع الشيخ محمد العربي الدرقاوي[25] (1219 هـ / 1808م)[26]، الذين أشعلوا ثورة خطيرة في منطقتي قسنطينة ووهران غطت مساحتها المناطق الغربية من الشلف حتى الحدود المغربية، بالإضافة إلى أغلب الجهات الشرقية من الإيالة، وتعد ثورة الدرقاويين من أخطر الثورات التي عجلت بسقوط الجزائر العثمانية كما وضعت قدراتها الحربية في مواجهة الغزو الفرنسي سنة (1245 هـ /1830 م)، وقد تزعم هذه الثورة مقدم الدرقاوية محمد بن عبد القادر الشريف...وسببها ما يفرضه البايات من مغارم وضرائب...[27]. كما كانت هناك ثورة أخرى هي ثورة ابن الأحرش[28] – فقد كانت قوية– وكادت أن تقلب الأوضاع في الشرق الجزائري ضد العثمانيين، وقد هدد ابن الأحرش مدينة قسنطينة نفسها، وخاض معارك بين قسنطينة والجزائر قبل أن ينتقل إلى غرب البلاد ليتعاون مع الدرقاويين هناك[29]. ومن أشهر ما قاله في تعبئة جيشه وهو أمام الحصار :" يا أهل البلد هذا الشريف قدم إليكم، ونحن قدمنا معه في جنود كبيرة وجيوش عريضة، لا

تقدروا على مقاتلتنا ولا تنجوا إن فررتم منا، فإن أسلمتم لنا البلاد فلا حرج عليكم، وإن امتنعتم تقاتلكم وندخلوا البلاد بقوتنا"[30].

إلا أن هذه الثورة لم يكتب لها النجاح نظرا لعدم توفر الظروف المناسبة وعدم استثمار ابن الأحرش للظروف التي كانت مواتية "...إن عدم اغتنام بن الأحرش فرصة مقتل الباي، بتشتت قواته بوادي الزهور للقضاء على سلطة البايلك، سمح لحكومة الدايات بإعادة تنظيم نفسها وإرسال الإمدادات إلى قسنطينة، وعزل ابن الأحرش عن أغلب القبائل التي ساندته أول الأمر ..."[31].

"كما كانت هناك ثورة الطريقة التيجانية ضد النفوذ العثماني وإن لم تكن في عهد مؤسسها"[32]، "فقد تجلت في عهد أبنائه، ويبدو أن علاقة التوتر بدأت بين الطرفين منذ أن أبانت الدولة العثمانية عن أطماعها في خيرات المنطقة الجنوبية التي كانت بعيدة عن السلطة المركزية وتعيش استقلالية، يبدو أنها أقلقت الدولة العثمانية"[33]، "وقد تجلى هذا التوتر منذ الحملة التي قادها الباي محمد الكبير سنة (1214 هـ / 1782م ) نحو الجنوب الصحراوي، وتكررت الحملة سنة (1216 هـ / 1784م ) حيث أبان له سكانها الطاعة والسكان وقدموا ما عليهم من خيل وخدم ومال. وقد كان سكان عين ماضي – حيث مقر الزاوية التيجانية– يؤدون ما عليهم من ضرائب قدرت إحداها بـ 188 ريال"[34].

ومما زاد من مخاوف السلطة العثمانية من هذه الطريقة كسبها لمناطق جديدة في منطقة تيطري مما اعتبره العثمانيون تهديدا لهم، حيث كانوا يراقبون أية حركة دينية خاصة.

إن الطريقة التيجانية ظهرت في وقت اشتد فيه الضغط على النشاط الديني من لدن العثمانيين، "لذا قرر الباي حسن القضاء عليها قبل أن يستفحل أمرها فجهز جيشا سنة (1235 هـ / 1820م) وتوجه به نحو عين ماضي، التي دخلها بعد حصار دام أربعة عشر ساعة، إلا أن سكانها لم يأخذوا بنصيحة شيخهم بعدم مقاتلة الباي لأنه يعلم أنهم غير قادرين على مواجهته، وأمام هذا الوضع عرض سكانها على الباي مبلغا قدره 100.000 بوجو من الفضة(24 ألف بوجو هي 43 ألف فرنك[35] مقابل رفع الحصار وتأمين أرواحهم"[36].

إن مخاوف العثمانيين لم تتوقف عند هذا الحد مع التيجانيين، وهو ما أدركه أبناء التيجاني أنفسهم، حيث سعوا إلى التحالف مع مختلف القبائل خاصة في معسكر سعيا لتحقيق النصر، ولكن ذلك لم يتحقق ، يقول الزهار وهو يصف الأعمال المروعة التي قام بها العثمانيون ضدهم:"... وقاتلوا قتالا شديدا، إلى أن قتلوا عن آخرهم، فقطعوا رؤوسهم وفرقوها على المدن لكي يعتبر الناس،وبعثوا رأس الحاج محمد ولد التجاني ومعه بعد الرؤوس الأخرى للجزائر... وكان الباي قد بعث البشائر للأمير قبل قدوم الرؤوس..."[37]، ولغياب التكافؤ كان الفشل هو مصير هذه الثورة.

هذا غيض من فيض وصورة بسيطة عن المعاملات القاسية للعثمانيين ضد العلماء والطرق الصوفية، لقد تأملت مختلف المصادر المراجع وهي تتحدث عن أسباب هذه الثورات، وقد أجمعت بشكل عام عن التسلط السياسي والفساد، وفرض الضرائب وتحميل الناس فوق طاقتهم في مختلف المجالات، وقد ذهبت بعض المراجع لاعتبار القضاء على الغزو الصليبي خاصة فتح وهران، والذي كان سببا في تحالف أعداء اليوم، فقد جمعهم الدين الوطن بالأمس، والواقع أنني استغربت لأن يكون التحالف حول الوطن والدين مؤقتا لأنه من المعلوم ومهما كان دهاء السياسيين أن الوطن كلمة مطلقة في قاموس المعاملات، ومهما يكن من أمر فإن هذه المعطيات أثبتت أن الحكام وبعض شيوخ الزوايا لم يكونوا في المستوى المأمول لدينهم ولأوطانهم، وأن المصلحة هي الغالب في قواميس السياسة والدين –كما يبدو– ، ومن هذا المنطلق فقد جسدوا فكرة "ميكافيل" "الغاية تبرر الوسيلة".

**خاتمة:**

- إن منطلق العثمانيين في منطلقه كان صوفيا ولذلك لبوا دعوة الجزائريين لحماية وطنهم، فاستجابوا بشكل سريع.
- إن الطرق الصوفية لم تكن وليدة الوجود العثماني في الجزائر، بل سبقته بفترات وإنما كان الانتشار بشكل ملفت في العهد العثماني.
- لقد تعددت وظائف الطرق ومست مختلف الجوانب:

- ساهموا مساهمة واضحة المعالم في تحطيم الجهل وتعليم الناس وتنوير عقولهم في أمور دينهم ودنياهم.
- ساهموا في تثبيت الحكم العثماني في الجزائر من خلال مساعدة الحكام في أداء مهامهم وربط صلات مباشرة بالسكان ليسهل التعامل بين الطرفين.
- رفعوا لواء الجهاد فكانوا سيفا قويا على أعدائهم وأعداء الدولة العثمانية من الصليبيين الاسبان الذين حاولوا أكثر من مرة في سبيل السيطرة على الجزائر والبقاء فيها، فبرهنوا على وطنيتهم وإخلاصهم وبذلوا كل ما بوسعهم لتحرير البلاد.
- لعبوا دورا بارزا في تنمية الاقتصاد وإصلاح ذات البين حفاظا على النسيج الاجتماعي للمجتمع الجزائري.

- لم تبق الطرق الصوفية كما لم يبق الحكام على وفائهم لبعضهم، فإذا كان الحكام أغرتهم السياسة وسكر المال والسلطان فإن سكر العلم أصاب شيوخ الزوايا، واعتقد بعض منهم في لحظة معينة أن لا شريك لهم في فهم الدين فما إن وضعت الحرب أوزارها واتضحت معالم التحرير انبرى كل طرف ليحقق مآربه.
- لقد أبانت بعض الطرق عن حقيقتها ومحدودية فهمها وسيطرة الشعوذة على أفكارها، مستغلة جهل البعض بعقيدته لتصبح الخرافة سيدة الموقف في التعامل مع واقع الحياة بعيدة عن أصول الدين الحقيقية.
- لم يكن الأمر ليصل إلى هذا المستوى لو كان الحكام العثمانيون يحققون فعلا تطلعات الشعب الجزائري متخلين عن أطماعهم السياسية والمالية وبذلك أوقعوا الوطن وأوقعوا أنفسهم في مخالب الطمع والجشع وحب ذات وأصيبوا بسكر لم يستيقظوا بعده.
- إن جل الحكام والمتصوفة يبدو أنهم لم يدركوا حقيقة التحالف بداية ولذلكم كانت النهاية بهذا الشكل.

لأقول أن الأمر إذا تعلق بالوطن والدين فإن مصطلح التضحية هو سيد الأمر مهما كان الوضع وكانت المصلحة.

**الهوامش:**

(1) سعد الله. أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي(1500 – 1830)، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى 1998، ج1 ص ص 461 –462.

(2) Kemal H.Karpat, islam: reconstructing identity, state faith and community in the late ottoman state, oxford university press, 2001, p19.

(3) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي الشريف الإدريسي التلمساني وعلامة بلاد المغرب في زمنه ولد بداية القرن 8 هـ . للمزيد عن حياته **ينظر**: ابن مريم.عبد الله بن محمد بن أحمد، البستان في ذكر الأولياء والعلماء في تلمسان، المطبعة الثعالبية الجزائر، 1908، ص ص 164 – 174.

(4) Bargès Abbé J.J.L Complément de l'histoire des Béni Zeiyan rois de Tlemcen, ouvrage du cheikh M ed Abd Al Djalil Al Tenessy, Ernest Leroux librair-éditeur, Paris, 1887 p445.

(5) ش.دري معمر. رشيدة، العلماء و السلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات 1671–1830م، رسالة ماجستير، تخصص تاريخ حديث، الجزائر 2006، ص 120.

(6) سعد الله. أبو القاسم، المرجع السابق، ص ص 265 – 266.

(7) سعد الله . أبو القاسم، نفس المرجع ، ص 463.

(8) نفسه.

(9) Devoulx,Albert, Les édifices religieux de l'ancien Alger Bastide, Alger, 1870, p 03.

(10) شدري معمر. رشيدة، المرجع السابق، ص 45.

(11) بعارسية. صباح ،حركة التصوف في الجزائر خلال القرن (10 هـ / 16 م)، رسالة ماجستير، الجزائر 2007، ص 139.

(12) EMERIT (M.), « L'état intellectuel, et moral de l'Algérie en 1830 », Revue d'histoire moderne et contemporaine, tome 1 N°3, Juillet-septembre 1954, p 209 (p p 199, 212).

(13) Stambouli (F.) – Zghal (A.), « La vie urbaine dans le Maghreb précolonial », in ANN .AFR,N, N°11 , 1972, p207 (191,213).

(14) سعد الله. أبو القاسم، المرجع السابق، ص ص 268 – 269.

(15) سعد الله. أبو القاسم، المرجع السابق، ص 267.

(16) سعد الله. أبو القاسم ، نفس المرجع، ص 272.

(17) سعد الله. أبو القاسم، نفس المرجع، ص ص 206–207.

(18) شدري معمر. رشيدة، المرجع السابق ، ص 89.

(19) شدري معمر. رشيدة، نفس المرجع، ص 93.

(20) العسلي. بسام، الجزائر والحملات الصليبية 1547 – 1791 م ، دار النفائس الطبعة الثانية 1986، ص 120.

(21) Brosselard, Charles, Les Khouans, La constitution des ordres religieux musulmans en Algérie, H.Bourget, Alger, 1859, p p 18- 24.

(22) شدري معمر. رشيدة، المرجع السابق، ص 143.

(23) نفسه.

(24) Filali, Kamel, "Sainteté maraboutique et mysticisme, contribution à l'étude du mouvement maraboutique en Algérie sous la domination ottomane" in Insanyyat N°3, 1997, p 125, p p (117 - 140).**Voir aussi** : Boyer Pierre. Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la Régence d'Alger (XVIe-XIXe siècles). In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°1, 1966. P 30, p p (11-49).

(25) يعود تأسيس الطريقة الدرقاوية إلى الشيخ محمد العربي الدرقاوي المولود في مراكش عام 1145 هـ / 1733 م، وكان ينتمي إلى قبيلة بني زروال شمال مدينة فاس، تعلم التصوف على يد الشيخ عبد الرحمن الجمال الإدريسي الفاسي شيخ الطريقة الشاذلية، وقد أسس الشيخ محمد العربي زاويته في "بوبريج" بفاس، ثم انتشرت في شمال المغرب الأقصى وغرب الجزائر. **ينظر:**

RINN, LOUIS, Marabouts et Khouans étude sur l'Islam en Algérie, A.Jourdan, Alger, 1884, p p 75- 76. **Voir aussi :** ANDRE, (P.J), Contribution à des confréries religieuses musulmanes, maison de livres,1956, p 246.

(26) سعد الله. أبو القاسم ، المرجع السابق، ص 220.

(27) هلايلي. حنفي، ثورة الدرقاوية في الغرب الجزائري خلال عهد الدايات، مجلة التاريخية المغاربية، العدد 115، ماي 2004 ، ص ص (123، 130)، ص 125. **ينظر أيضا:**

E. de Neveu,les khouan:ordres religieux chez les muslmans de l'Algérie,2eme ed, 1846,p p 147-179.

(28) يقال له السيد أحمد بن الأحرش، فتى مغربي مالكي مذهبا، درقاوي الطريقة، درعي نسبا، جاء لتلك القبائل وادعى أن الأمام المنتظر. **ينظر:**

المزاري. الأغابن بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر و إسبانيا وفرنسا، تحقيق يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1990 ، ص 299.

(29) سعد الله. أبو القاسم، المرجع السابق ص 222.

(30) بن العنتري. محمد صالح، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها (تاريخ قسنطينة)، مراجعة وتقديم: يحي بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 70.

(31) جعني. زينب، ثورة ابن الأحرش في بايلك الشرق (1800 – 1807)، مجلة عصور جديدة، قسنطينة، العدد 18 2015، ص ص (129- 140)، ص 134.

(32) الشيخ أبو العباس أحمد مختار بن مسلم التيجاني المولود بعين ماضي سنة (1150 هـ / 1737م )، زاول دراسته الأولي بسقط رأسه على يد والده محمد بن حمو التيجاني، بعد ما توفي والده خلف منصبه في التدريس، ومال للتصوف وعمره 20 سنة. **ينظر:**

ARNAUD (L.),"Histoire de l'ouali sidi Ahmed El-Tedjani, extrait du Kounache", in R.A, vol °5, N°25, 1861, p468.

(33) DE NEVEU, Op.cit, p 120.

(34) RINN, Op.cit, p421.

(35) عباد.صالح، الجزائر خلال الحكم التركي (1514 - 1830)، دار الأملعية للنشر الجزائر، الطبعة الأولى 2012 ، ص434.

(36) RINN, Op.cit, p423.

(37) المدني.أحمد توفيق، مذكرا ت الحاج أحمد الشريف الزهار(1754، 1830م)،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1974، ص 160.

## قائمة المراجع:

1- ابن مريم.عبد الله بن محمد بن أحمد(1908)، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء في تلمسان**، (د.ط)،الجزائر، المطبعة الثعالبية.

2- ابن العنتري. محمد صالح(د.ت)، **فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها (تاريخ قسنطينة)**، مراجعة وتقديم: يحي بوعزيز، (د.ط)، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

3- بعارسية. صباح ،حركة التصوف في الجزائر خلال القرن (10 هـ / 16 م)، رسالة ماجستير، الجزائر 2007.

4- شدري معمر رشيدة (2006)، **العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات 1671-1830م**، رسالة ماجستير، منشورة لنيل شهادة ماجستير في تاريخ حديث، جامعة الجزائر، الجزائر.

5- جعني. زينب،(2015). «ثورة ابن الأحرش في بايلك الشرق (1800 – 1807) »، مجلة عصور جديدة، جامعة السانية ـ وهران، العدد 18، ص.ص. 129-140.

6- المدني.أحمد توفيق(1974)، **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار(1754، 1830م)**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

7- المزاري. الأغابن بن عودة(1990)، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر و إسبانيا وفرنسا، تحقيق يحي بوعزيز، (ط1)، الجزائر، دار الغرب الإسلامي.

8- سعد الله. أبو القاسم(1998)، **تاريخ الجزائر الثقافي(1500 – 1830)**، بيروت، (ط1)، بيروت، دار الغرب الإسلامي .

9- عباد.صالح(2012)، **الجزائر خلال الحكم التركي (1514 – 1830)**، (ط1)، الجزائر، دار الأملعية للنشر .

10-العسلي. بسام(1986)، **الجزائر والحملات الصليبية 1547 – 1791 م**، (ط2)، عمان، دار النفائس.

11-هلايلي. حنفي، (2004). «ثورة الدرقاوية في الغرب الجزائري خلال عهد الدايات»، **المجلة التاريخية المغاربية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات – تونس**، ص.ص. 123-133.

12- ANDRE, (P.J), (1961).**Contribution à des confréries religieuses musulmanes**, (S.E), France, maison de livres.

13- Arnaud L.(1851). « Histoire de l'Ouali Sidi Ahmed el Tidjani, Extrait du Kounache », **in R.A,** vol°5, n° 25, p.p.468.474.

14- Bargès Abbé J.J.L,(1887). **Complément de l'histoire des Béni Zeiyan rois de Tlemcen, ouvrage du cheikh M ed Abd Al Djalil Al Tenessy**, Paris, Ernest Leroux librair-éditeur.

15- Boyer Pierre, (1966), «Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la Régence d'Alger (XVIe-XIXe siècles) ». **Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée,** n°1.

16- Brosselard, Charles, (1559), **Les Khouans, La constitution des ordres religieux musulmans en Algérie**, Alger, H.Bourget. p.p.11.49.

17- DEVOULX, ALBERT,(1870). **Les édifices religieux de l'ancien Alger Bastide**, Alger.
18- EMERIT (M.),(1954). « L'état intellectuel, et moral de l'Algérie en 1830 », **Revue d'histoire moderne et contemporaine**, tome 1 N°3.p.p.199.212.
19- Filali, Kamel, (1997). «Sainteté maraboutique et mysticisme, contribution à l'étude du mouvement maraboutique en Algérie sous la domination ottomane» ,**Insanyyat** N°3.p.p.117.148.
20- Kemal H.Karpat, islam, (2001). **Reconstructing identity, state faith and community in the late ottoman state**, oxford university press.
21- RINN, LOUIS, (1884). **Marabouts et Khouans étude sur l'Islam en Algérie**, Alger, A.Jourdan.
22- Stambouli (F.) – Zghal (A.),(1972) « La vie urbaine dans le Maghreb précolonial », **ANN .AFR, N**, N°11.p.p. 191-213.